المكان العام ودلالاته في شعر يحيى السماوي

سمارة سعيد حميد

أ.د. رفل حسن طه

جامعة كربلاء- كلية التربية للعلوم الانسانية

قسم اللغة العربية

الكلمات المفتاحية : المكان ،العام ، دلالاته، يحيى، السماوي

الملخص

يتميز المكان العام بعناصره ومظاهره الجمالية وفيه طاقات خيالية، فأن المكان العام يعطي المبدع أو الشاعر لوصف الظواهر الطبيعية كالنهر والبحر والصحراء، فيقوم الشاعر على اظهار هذه الجماليات، فتكون علاقة تأثير وتأثر بينه وبين تلك الظواهر فتتشكل حياة الفرد من احداث تحدد ابعادها مظاهر مكانية مشحونة بالعواطف والمشاعر، وتتحكم بها مجموعة من العلاقات التي تربطه بمكانه فضلا عن ،انتمائه اليه فالمكان العام فيه إيحائية ورمزية وله مظاهر جماليةَ، فهي متيسرة للشاعر المبدع ، فالمكان العام هو مكان مفتوح مادياً يتسع لمناطق طبيعية كالأنهار والبحار، يعطي الشاعر مرونةً في وصف جمالياته بحرّية، ولايتوقف وصف المكان على اظهار هذه الجماليات، بل يصل إلى تحديد ابعاده وعلاقاته بالأفراد ، وتأثيره بالبيئة وتأثيره في الظواهر الاجتماعية، فهو المحيط الذي يحوي الفعاليات والاحداث.

Summary

The public place is characterized by its aesthetic elements and manifestations and contains imaginary energies, so we notice the places in the poetic texts by the poet's dependence on composition and creation, not out of hidden relationships. Between him and those phenomena, the life of the individual is formed from events whose dimensions are determined by spatial manifestations charged with emotions and feelings, and controlled by a set of relationships that connect him to his place as well as his belonging to it. It is available to the creative poet. The public place is a materially open place that accommodates natural areas such as rivers and seas. The poet gives flexibility to describe his aesthetics freely. The description of the place does not depend on showing these aesthetics, but rather reaches to determine its dimensions and relationships with individuals, and its impact on the environment and its impact on social phenomena. It contains activities and events.

توطئة

يتميز المكان العام " بعناصره ومظاهره الجمالية وفيه طاقات خيالية ، فنلاحظ الاماكن في النصوص الشعرية باعتماد الشاعر على التركيب والخلق ، لا خراج العلاقات الخفية ، فأن المكان العام يعطي المبدع او الشاعر لوصف الظواهر الطبيعية كالنهر والبحر والصحراء ، فيقوم الشاعر على اظهار هذه الجماليات ، فتكون علاقة تأثير وتأثر بينه وبين تلك الظواهر [١]، فتتشكل حياة الفرد من احداث تحدد ابعادها مظاهر مكانية مشحونة بالعواطف والمشاعر ، وتتحكم بها مجموعة من العلاقات التي تربطه بمكانه فضلا عن انتمائه اليه [٢]، فالمكان العام فيه إيحائية ورمزية وله مظاهر جماليةَ ، فهي متيسرة للشاعر المبدع " فالمكان هو مكان مفتوح مادياً يتسع لمناطق طبيعية كالانهار والبحار، يعطي الشاعر مرونةً في وصف جمالياته بحرّية ،ولايتوقف وصف المكان على اظهار هذه الجماليات، بل يصل الى تحديد ابعاده وعلاقاته بالافراد ، وتأثيره بالبيئة وتأثيره في الظواهر الاجتماعية، فهو المحيط الذي يحوي الفعاليات والاحداث" [٣]

" علاقة الانسان بالمكان قديمة وجدت بنزوله إلى الارض، حيث لجأ إلى الكهوف الطبيعية والاشجار التي تحميه من الحر والمطر "[٤] ، فالمكان لا يتشكل حضوره في النص الادبي إلا من خلال عناصر اللغة التي تشكل مجتمعة بناء لغوياً يكون بديلا فنياً عن المكان الموضعي [٥]

وهناك آيات قرانيه تدل على ان الله سبحانه وتعالى جعل من الارض مكانا مهيئا لسبل الحياة قال تعالى :" **وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا** "[٦]

وايضا قوله تعالى : " **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** "[٧] ومن ملاحظتنا للآيات المباركة انه سبحانه سخر الارض ومن عليها جميعا لخدمة الفرد وجعلها مكانا يأوي المخلوقات اجمع وثبتها بالرواسي وشق الانهار من خلالها .

ورد في نظم الشاعر يحيى السماوي اماكن عامة كثيرة يمكن تصنيفها الى:

١- الاماكن المقدسة:

منها ما كان صناعيا، ومنها ما كان طبيعيا ،واكثر الاماكن العامة ورودا في شعر الشاعر هو مكة المكرمة والاماكن المقدسة الاخرى، لقد اتبع الشاعر طريقة التشويق والاغراء للتعرف-فيما بعد- الى ذلك المكان الذي سلب لبه وقلبه بأبيات عدة ، ليأتي فيما بعد ويخاطب (مكة) المكان المقدس العام خطاباً مباشراً، ومن ذلك قوله : [٨]

عطش القلب دهورا فاستقى
بين اهليك الشذى والعبقا
حلقي بي في روابيك فما
رغبت روحي سواها أفقا
واطلقيني شفة صادحة
تتغنى بعفاف وتقى
أنا يا مكة منذ اكتحلت
بك عينياي اكتشفت الألقا

استهل الشاعر نصه بمشاعر جميلة، بين فيها محبته وشوقه لمكانٍ معين أثار فضول المتلقي لتتبع النص ، لغرض معرفة ذلك المكان الا وهو مكة المكرمة ، ذلك المكان العام الذي تتوق لرؤيته أنفس المسلمين جميعهم ،وتشتاق إلى زيارته أرواح المؤمنين كلهم ،لذا ذكره بشكل صريح ومباشر في اخر النص ، وفي موضع اخر ذكر مكان عام مقدس اخر وهو (الحرمين الشريفين) مكة والمدينة ، لما قال[٩]:

أمد القلب قبل يدي
ويسبقني اليك غدي

فيا وطنا حباه الله
بالحرمين للابد
تركت على ثراك الروح
يوم رحلت بالجسد
أبعدك يستطيب النبع
قلب للعرار صدي ؟

لا تختلف الصورة المكانية من خلال ألفاظها عن الصورة المكانية السابقة، فهذا الوطن الذي قصده الشاعر قد فضله الله وباركه ، لوجود الحرمين المقدسين فيه ، وهي اماكن عامة مقدسة اراد الشاعر التأكيد عليها وذكرها، ونجده في موضع اخر يفصل القول في بعض تلك الاماكن فيقول[١٠] :

مرابع ما وجدت لها بديلا
ولا لحبور زائرها مثيلا
"منى" وجوارها من خير أرض
واخرى ضم طاهرها الرسولا
نثرت خطاي في شرق وغرب
وقد جبت الثرى عرضا وطولا
فما استعذبت قبلهما نميرا
ولا اطفأت بعدهما غليلا

الصورة المتشكلة في المقطع صورة موضعين مقدسين هما(منى وقبر الرسول صلى الله عليه واله وسلم) الذي اشار اليه بانه مكان ضم الرسول (صل الله عليه واله وسلم) ،ويبدو من العاطفة التي ظهرت في النصوص السابقة بأن الشاعر قد ربطته علاقة حميمة بتلك الاماكن العامة ، لما لها من قيم ايمانية قد ارتبطت بمشاعر روحية ودينية مقدسة نابعة من الديانة التي يعتنقها الشاعر بوصفه مسلما ،وتلك الاماكن تمثل احد الرموز الاسلامية المهمة لما لها من قداسة وحرمة ، وفي النص اشارات لفظية عدة تشير الى اهمية المكان (مرابع، أرض، الثرى) بل حتى بعض التراكيب التي تشير الى جذب تلك الاماكن المقدسة له ولغيره دون إرادة منهم كقوله (نثرت خطاي في شرق وغرب) كناية عن كثرة الترحال ، وكذلك قوله (عرضاً وطولا) . وفي موضع اخر يقول الشاعر السماوي[١١]:

أمس – انتصاف الليل- جف دمي
وشب حريق شوقي
فاستغثت
بماء " زمزم" بئرك الضوئي
في الوادي السحيق
ميمما
وجهي لخدرك
لا دليل
سوى سناك

إن المعنى المباشر الذي ينطوي عليه النص يكشف عن تعلق الشاعر بمحبوبته ، فقد عبر بصورة جميلة عن شوقة لحبيبته لدرجة ان لهيب الشوق جففّ دمه، فيستغيث ب(ماء زمزم) هذا البئر المقدس في المسجد

الحرام الذي يحتوي مياهاً جعل الله فيها الشفاء من كل داءٍ، وهنا السماوي استغاثوا من الاشارات الى الاماكن المقدسة ، قول الشاعر(١٢)

مَرْضِيةٌ ..لن تشتكيكِ لَرَبها
نفسي إذا أغْمَضتِ ليْ عَيْنَيا
وَنَثَرْتِ كافوراً عليَ.. وَشَيَعتْ
عيناكِ صَباً في هواهُ تَقِيا
وأنْبتِ عنيِ شرْبَةً من زمزمٍ
وَبسَطْتِ كفاً بالدعاءِ عَشِيا
وَسَعيتِ لي بينَ "مروةَ والصفا"
سبعاً .. وزرتِ عن القتيلِ نَبيا
معذورةٌ إنْ تقتلي مُتأبداً
في الغُرْبتَين عن العراق شَقيا

النص غزلي بأمتياز ، إلا ان الشاعر قد تناصّ مع المكان المقدس فيه بشكل جميل جداً حينما ربط بين عقيدة الحب والعقيدة الدينية المقدسة وهي (الحج) واركانه وشعائره بدلالة قوله (في الغربتين) وهي غربة العشق والغربة المكانية عن العراق ، فأصبح النص الشعري أكثر تأثيرا في ذات المتلقي ، فكلما كانت المعاني ذات دلالة كانت أكثر تأثيرا عمقا وجمالاً، ويستطيع الشاعر أن يزيد على تلك الدلالة عندما يمزج الواقع مع الخيال .

ونلاحظ ايضاً قوله في موضع اخر : (١٣)

جَفَ الصراخُ على فمي..
والدمعُ جفَ..
وفر هُدبي نافراً وجهي ومنتبذاً جفونهْ..
فصنعتُ اضلاعي
سفينة
و أخترتُ من روضِ البتولِ حمامتين..

في هذه الابيات يستحضر الشاعر المكان وهو (روض البتول) ويقصد بالبتول هنا فاطمة الزهراء ومريم العذراء (عليهما السلام) ومعنى البتول المرأة المنقطعة والمتفرغة لله سبحانه ،والذي لاحظّ لاحد في قلبها وعقلها، فنلاحظ توظيف المكان المقدس الذي سنده الى شخصيات مقدسة اعطى للنص الشعري القيم الجمالية والعناصر الفنية التي جعلت منه اكثر حلاوة في نفس المتلقي.

، وفي موضع اخر يقول: (١٤)

فهمستُ
رفقاً بالغريبِ..
ألستَ قلباً مُسلما؟
أبطلت عُمرة ناسكٍ
قد جاء " مكة "
مُحرماً!
وحَرمتهُ سعياً
ب " مروة والصفاءِ "
و " زمزماً "
يا مُبطلاً حتى وضُوئي:

كُن لعشقٍ
ميسماً

تداخلت الاماكن المقدسة في النص مرة اخرى (مكة –مروة والصفا-زمزم) ، وتجمد الزمن، وهنا يربط بحنكة شعرية علاقته بحبيبته، فهي كعلاقة المسلم ب(مكة) ، التي تعكس مدى صدق العلاقة بين العاشق ومعشوقه ، وهو يربط بين طقسين محببين إلى نفسه ،وهما طقس العشق وطقس الحج الذي طالما يذكره في شعره لتمكنه من نفسه كمكان مقدس وكشعيرة دينية مهمة تعكس مدى تعلقه بالمكان، وتعد مكة المكرمة من الاماكن الاليفة المحببة للشاعر.

٢- المناظر الطبيعية:

يقول الشاعر[١٥]:

شقت ظلام الليل اينانا [١٦]
فأيقظت المرايا...
ألبستني
بردة الفرح المؤجل
منذ عام الهجرة الاولى
عن الماء الفرات
وسيد الشجر
النخيل

يظهر في النص إن الشاعر وصل الى مرحلة من التوتر العاطفي النفسي وطنه (العراق) بأشارة جميلة ، ذلك البلد الذي لم يغادر دائرة ذاكرته ابداً من خلال رؤيته لنهر الفرات إذ يمر النهر بها، وهذاما جاء عند ذكره لإلهة الحب والجمال "اينانا" في الاساطير السومرية التي أعادت إليه الذكريات بعد الهجرة من العراق، كما امتازت سماوة الشاعر بوفرة اشجار النخيل من الداخل ،والبادية التي تحيطها من الخارج، وعن احياء الارض المقفرة التي لا عشبُ فيها ولا زرع يتحدث الشاعر عن نزول المطر فيقول[١٧]:

فأجابني صمتي
هو المطر الوبيل
فانثر بذورك
آن للصحراء ان تتفيأ
الأيك الظليل
وتفيض غدران بأعذب
سلسبيل
القى عليَّ
تحية العشق الخرافةِ هدهدُ البشرى
وقالَ
يخصُّكَ الزمنُ الجديدُ
بجنةٍ
من فوقها تجري من الافراح أقمارٌ
ويجري تحتها
نهرٌ من القُبلاتِ والازهار والأطيار

والشجر البتيلْ

يتفاءل الشاعر خيرا بهطول المطر الوبيل على صحراء همومه لتزيلها وتنبت مكانها اشجار الامل بعد ان اصبحت الصحراء تربة خصبة ان للشاعر ان ينثر بذوره فيها ،فالنص يتحدث عن ذاته المقفرة بأسلوب الترميز الذي يشير بشكل مباشر الى ضرورة التغيير في حياته في قوله (آن للصحراء ان تتفيأ الأيك الظليل)، وبعدها يخبره طائر الهدهد ببشارة خير وهي ان المستقبل سيكون بمثابة جنة للشاعر ،نلاحظ ان هناك اهتمام كبير للشعراء لمناظر المياه الجارية ، فاخذوا يهتمون بأشعارهم بالأنهار والجداول والبحار فيصفون بما لديهم من مهارات وابداعات فنية وثقافية "[١٨]، ونلحظ اهتمام الشاعر السماوي بالأنهار والبحار ،فيقول الشاعر :[١٩]

من ستة انهار

وصحارى ملاذ للواحات

تطرزها أسراب ظباء

يسترجع الشاعر الزمن لعل في ذلك ذكريات عالقة في ذهنه، و يربط بين الانهار وبين الصحاري ،وما للأنهار من تأثير في احياء الاراضي الجرداء وجعلها واحات خضراء ومواطن لمختلف الحيوانات بما فيها الظباء ، وفي كل هذا اشارات رمزية الى جدب حياته ، وتشوقه الى التغيير.

وفي موضع اخر قال [٢٠]

يا صاح لا تقنط فقد وعدا

بغد المسرة ذو تقى وهدى

من يغمر الايمان خافقه

يجد اللهيب وجمره بردا

كم راحلا عنا وقد بقيت

اشذاؤه تستنطق الابدا

ان جف في قلبي نمير هدى

لا "النيل" يرويني ولا "بردى"

صارت الامكنة الطبيعية وسيلة الشاعر التعبيرية في الافصاح عن مشاعره الذاتية والانسانية ، وذكر نهري(النيل وبردى) ، وهما من الاماكن العامة المعروفة لدى المتلقي ،ذكرهما الشاعر لبيان ظمأه النفسي لرؤية بلاده ،فمياه النهرين على كثرتها وغزارتها لا تروي عطشه ولا تكفيه وتسد شوقه لبلده وانهاره ، وهو بذ لك استثمر الاماكن العامة واستغل شهرتها لغرض اظهار ما يختلج نفسه من مشاعر واحاسيس تجاه وطنه، ان اضفاء " صفة الجمال الطبيعي على المكان ، يوسع مسافة الانتماء بين الظاهرة الجمالية والشاعر ، ويترك اثرا عميقا في نفسه يجعل التعبير عنها باللغة متوازياً مع مايتحلى به الواقع من مشاهد مكانية "[٢١]

وعن اهتمامه بالبحر يقول : [٢٢]

شراعي كان قبلك دون بحر

وخطوي لم يكن لو سرت سهما

فالبحر من الاماكن العامة التي استعان الشاعر بوساطتها من خلال شراع السفينة لوصف حاله قبل دخوله بيت العشق ،وهو سطح مصنوع من القماش يتم تثبيته على صاري حتى يأسر الرياح لغرض دفع السفينة الى الامام في البحر، فالشاعر يتحدث عن الحال بشكل رمزي.

وفي موضع اخر يقول السماوي :[٢٣]

ومن حرير الامنيات ملاءة ..

وقلادة من طين دجلة والفرات ..

دجلة والفرات نهري عشق السماوي في غربته اهتم بهما كثيرا في شعره لما لهما من تأثير في نفسه، فهو يتمنى ارتداء القلادة من طينهما اعتزازا ومحبة ببلده العراق ، ان اغلب نصوص الشاعر التي وظف فيها المكان .

٣- المدن المحلية والدولية:

مدينته (السماوة) تعد من الاماكن العامة الحميمة والقريبة جدا من روح الشاعر حتى يمكن ان نعدها مكانا عاماً و خاصاً في اكثر من موضع فيقول عن ارضها: (٢٤)

في ارض السماوة
يوم حط على سريري
هدهد البشرى بأول زخة عذراء
من مطر الهديل
فثملت من خدر
فما أدري أكان الوقت صبحا ؟
ام اصيل ؟

يبدأ النص بتشكيل ثنائية اساسية هي(الانا والاخر) تسود بين طرفيها علاقة بعد (زماني ومكاني) حين وصف الشاعر حالته حين اتاه طائر الهدهد الذي يكني به دائماً عن البشارة، وفي هذه الاثناء لم يعد للشاعر الحول على بلوغ عنان السماء لان عادة الانسان حين يمر بمثل تلك الحالة تتهاوى قواه في وادي الامنيات. وفي موضع آخر نرى الشاعر يقدس مدينته ويصفها، فيقول (٢٥) :

فإذا "السماوة " كعبتي ..
و" فُراتُها " دُنيْ ودِيني!
أهِيَ السماءُ تأرضَتْ
أن قال فيها الله
كوني؟
لبتْ
فكانتْ ما أرادَ
ديارَ فردوسٍ أمين !
الناسُ فيها كالملائِكِ
في المودةِ والشجونِ

يوظف الشاعر المكان كبؤرة مركزية لحركة مشاعره، و بأسلوبٍ مميز لإيصال الصورة للمتلقي ، وبما أن الكعبة هي من أقدس الاماكن التي حباها الله بكرمه صار لها تأثيرٌ عميق في نفوس المسلمين ،كذلك مدينة الشاعر التي شبهها بالكعبة وما لها من تأثير كبير في نفسه حيث مولده ونشأته وذكريات طفولته هناك، وللفرات محبة لا تموت عند الشاعر، إذ قرن دينه ودنياه بوجود هذا النهر ،وفي هذه المدينة تحديداً لما لها منزلةٍ في نفسه ،فالمدينة وهي- في الوقت ذاته- جنة من جنات الاخرة لاشتراكها معها في بعض الصفات كالنهر الجاري في وسطها ،وكثرة البساتين على جانبي النهر، والناس الساكنين فيها كأنهم ملائكة لما حووه من الصفات الحسنة كالكرم ،والشجاعة ،والسخاء، والاحسان ،والمروءة ، ...الخ، وايضا ذكر الشاعر مدينته و شغفه بها ، فيقول: (٢٦)

ومن حرير الأمنياتِ مَلاءةً ..
وقِلادةً من طين دجلة والفراتِ..
ومن بساتين" السماوة " غصنَ رُمانٍ

ونبتة ياسمينة

لم يستطع السماوي التخلص من البعد المكاني في كل نجواه وتأملاته وحنينه الطاغي الى بلاده ومدينته، فتذكر (دجلة وفراتها و السماوة وبساتينها) ويربط بطريقة شعرية فنية بين البساتين والنهرين، إذ يمر فيها نهر الفرات حيث تكون البساتين برمانها واشجارها وما تحويه من فواكه وخضار على ضفتيه ، لذا قرن بينها وبين نهري دجلة والفرات اللذين لا يختلف تأثيرهما في نفسه عن مدينته .

يقول الشاعر: (٢٧)

أنا في " السماوة " ... لا اشكُّ بما ارى
فلقدْ رأيتُ بأهلها قسماتي
سأصيحُ بالقلبِ الذليلِ : كفى الضنى
فاغلقْ كتابَ الحزنِ والنكباتِ

كان الشاعر منسجماً مع نوازعه الوجدانية حين وقف ذلك الموقف من السماوة مستعملاً الضمير (أنا) ،مخاطبا نفسه بأنه سيزيل الشك ويبدله باليقين، فقد اصبح يرى ملامح وجهه في اهلها وهم ابناء جلدته ، متخذا عهدا جديدا من التفاؤل والامل ، ومغلقا ابواب الحزن والتشاؤم. وفي مقطع اخر يذكر الشاعر (السماوة) فيقول (٢٨):

جربت يوما
أن أغير في كتاب القلب ..
أشطب منه
بادية السماوة ..
والفرات المجتبى ..
وماذن الله النخيل
والكوخ والفانوس ..
تنور الصباح..
وطاسة اللبن الخضيض ..
ونخلة البرحي وسط الحوش ..
والفقر الجليل
فنشرت أشرعتي
وابدلت اللسان بغيره ..
غيرت أثوابي ..
وابدلت السواحل بالسواقي ..
والمراقص بالمآذن ..
والكمنجة بالهديل

يحاول السماوي اجراء تغييرات على جغرافية المكان في سماوة العشق خاصة ، وكذلك عاداته وتقاليده بعد هجرته الى خارج العراق ،فيحاول ايضا تغيير أسم الفرات الذي طالما ذاب في عشقه، وأنشد له من الاشعار ما أنشد ،فنلاحظه في هذا النص الشعري يرسم ملامح المكان ، ويرسم ملامح الاضطراب الكبير الحاصل بين بيئته القديمة التي فتح عليها بصره ، وبين بيئته الجديدة ، فالشاعر خلق الجمالية من خلال رسم صورتين متقابلتين للمكان ، الصورة الاولى وهي صورة مفصلة لا يكاد تشعر بها ثنائية ، اما الصورة الثانية قد

امتزجت بالاضداد من كل شيء ، اذ تداخلت الصورة الاولى مع الثانية في نوع من طغيان العاطفة وتملكها الكبير من نفس الشاعر ، بدلالة الجمل (السواحل بالسواقي) ، و (المراقص بالمآذن) و (الكمنجة بالهديل) .

ومنها قوله: [٢٩]

نصف عقد بـ" هور الجبايش"
عقداً مع اللوز والجوز في غابة
في الشمال

تشع ملامح المكان التراثي (هور الجبايش) الذي انتقل الشاعر في حديثه عنه من خلال الاسترجاع الزمني الى(نصف عقد) واصفاً الاماكن والتغيرات التي طرأت على الانتقال من الهور إلى الشمال وتبدل الحال من قصب وماء إلى جبال جوز ولوز، والوصف لم يرصد البعد الهندسي للمكان حسب انما اضاف عليه بُعداً نفسياً نابعاً من حبه إلى مكانه المحبب اليه، ومن نصوصه الاخرى قوله: [٣٠]

أما كان لي
أن أخبني ليلة في الصريفة
او ليلتين بسرداب قبر
وعاماً ببرية

يقلب الشاعر الزمن البعيد ليعيد ذهن القارئ إلى بيوتات القديمة عفا عليها الزمن فيذكرنا بـ(الصريفة) مسخراً لها أفق الخيال وجمال اللغة ، ثم يعيدنا الى الزمن الحاضر حيث (السرداب) والسمة التي تميز بها النص وجود عنصر الزمن مهماً وفاعلاً الى جانب المكان العام اذ شكلا معاً ثنائية فنية مترابطة، ونلاحظ المكان العام (الفرات) في قوله: [٣١]

أنا أنتَ ...فتشني تجدْ بدمي
مافيك من جمرٍ ومن بردِ
تجدِ " الفرات" يسيلُ من مُقلي
دمعاً فاشربه على جلدِ

في هذين البيتين الشعريين يذكر الشاعر نهر الفرات بأسلوب جميل معبرٌ عن عشقه لوطنه بألفاظ تشد القارئ ، فيقول انا انت أي يعني العراق الذي يجري في دمه ،ويجسد الفرات بدموعه التي تجري دماً فيشربها لكثرة ما ملأ قلبه من شوق وحنين للعراق. ويذكر الشاعر العراق في ابيات اخرى فيقول : [٣٢]

يا ابن الغربتين كفاك زهواً
بأنك لم تخن شرف العراق
ولا خنتَ النخيلَ وكوخَ طينِ
ولامج السّنابلِ والسّواقي
ويا ابن الغربتين أطلت شوطاً
بمضمار عصيِّ الانطلاق

نرى الشاعر يبتدأ (بياء النداء) مخاطبا نفسه ، مفتخرا بها ، أنه لم يخن بلده ،و نخيل السماوة ،وطين نهري دجلة والفرات ، ونراه يكرر النداء في البيت الاخر، ويخاطب نفسه بأنه اطال المسير في طريق الغربة الذي لا ينتهي، (ابن الغربتين)وهي اشارة تعكس حالة المكان الملازم له اينما حلّ وارتحل، وكأنه اصبح ابناً باراً للغربة المكانية والروحية، فالصورة تتجسد بمفردات مكانية طالما ألحّ عليها الشاعر مثل (النخيل، كوخ ،الطين، السنابل ، السواقي) ، فهي –عنده-معادل موضوعي للمكان العام التي تمنحه خصوصية واضحة ، حتى لتكاد تكون اماكن خاصة .

و(للرصافة) وجودٌ في قوله: [٣٣]

لا حدائقَ..

والطريقُ إلى المسرةِ موصدٌ
والعشبُ مُنطفئٌ
وما بين الرصافةِ والمها والجسر
سدُ..

يخاطب الشاعر علي الأمارة وهو ايضا شاعر طالبا منه أن يغلق نوافذ قلبه الجريحة، وفي هذا المقطع ايضا يذكر قاطع الرصافة أحد مناطق العاصمة بغداد، فيصف الشاعر الحال بين الرصافة والجسر، بأنه مسدود لكثرة الحواجز الكونكريتية، فيتألم الشاعر لحال الرصافة خاصة ولبلده العراق عامة

وقد ذكر الشاعر السماوي (البصرة) في شعره فيقول: [٣٤]

مررتُ بالبصرةِ .. لكنْ
لم أجدها..!
فقفلتُ هارباً
ولم أبلغ أحداً سلامكَ الحميمَ
خفتُ أن يصادرَ الغزاةُ صرّةَ الترابِ
ألقيتُ بها
وضعتُ في الزحامْ
لا "الحسن البصري" في مسجدهِ
ولا " الفراهيديُ" في مجلسهِ
ولا الفتى "عليُ" في " المقامْ "
خَليك في منفاكَ..
لوكان يجيدُ الهربَ الترابُ
ما أقامْ

النص الشعري فيه اشارات الى اهمية (المكان) في رسم حضارات الشعوب (مجلس، المسجد، المقام) ،نلاحظ رفض الشاعر العودة إلى البلاد ويعلل ذلك بعدة اسباب منها الغزاة، ومنها جشع المنتفعين من تردي الاوضاع في البلاد ، فيمر في البصرة في صورة تخيلية عن عودته إلى بلاده التي لم يجدها لكثرة ما أصابها من الدمار ، ثم يصبح هارباً مندهشاً لم يتوقع ما حصل ليحمل حفنة من ترابها ويلقيها بعدئذ لئلا يصادرها الغزاة ، لينطلق في زحام الناس باحثا عن معالم يعتز بها ،فقد تغير كل شيء في هذه المدينة حتى التراب لوكان يجيد طريقة الهرب من البلد لهرب ولم ينظر خلفه ، فينصح الشاعر نفسه بالبقاء بعيدا عن بلده باسلوب ابداعي جمالي يداعب الفكر والخيال وهذا ليس بجديد على شاعر متمكن كالسماوي، ولم يقتصر الشاعر على بلده فقط بل يتطرق في شعره الى مدن عربيه، يقول [٣٥]:

رويدكِ.. .ما لزهرائي إستحمت
بنهر ظنونها وأنا الصوابُ ؟
إذا شئتِ الجوابَ فليس عندي...
ولكن: في "المُجمعِة" الجوابُ

يذكر مدينة (المجمعة) وهي احد مدن نجد، فيستفهم الشاعر فيقول لمحبوبته اذا كنتِ تريدين الجواب فهو عند (المجمعة) ، طالباً منها أن تسأل نجد عن فتاها فهي ادرى ،وهي اشارة الى الاديب العربي الشيخ التويجري الذي بنى المدارس والمساجد في هذه المدينة، " ويمكن القول ان الزمان والمكان يمثلان العامل الاساسي في تحديد سياق الآثار الادبية من حيث اشتمالها على معنى انساني "[٣٦]

ويقول الشاعر [٣٧] :

لستُ وحدي اجلسُ الان على ساحلِ

"هِنْلي بيجْ "
ارمي الموجَ والرملَ
بأحجارَ الندمْ
لستُ وحدي
فأنا في قلبي اللهُ
وفي عينيّ بحرٌ
ويدي تحملُ اوراقاً وتبغاً وقلمْ

تمثل المكان بـ (هنلي بيج) وهي المدينة التي يسكنها السماوي في استراليا ، فبدأ الشاعر قصيدته بأسلوب عذب، وهذا ليس بغريب على شاعر متمكن كالسماوي ، نجده يجلس على الساحل في استراليا لينسج شعره في التعبير عن ما يختلجه من مشاعر الغربة والحنين فيرمي موج البحر بأحجار الندم، وأنه يجلس ومعه الله في كل وقت وبين هذه الحالة التي يمر بها يذكر انه جالس يحمل الاوراق والتبغ والقلم .

ويذكر في قول اخر: (٣٨)

يحدثُ في خيالي
ان أهزم الطغاة والعتاة و الأباطرةْ
وكلَ ما في الأرض من جبابرهْ
يحدث ان أطهر الحقول من كل الجرادِ البشري
في بساتين الفراتين
وفي "الجليل"..."يافا"...ورياض "الناصرة" ..
وأسرجَ الخضرة في القفار

في قصيدته (يحدث في خيالي) ينسج الشاعر صوره الشعرية البعيدة بأسلوب مشوق فيتخيل ان يهزم الطغاة والظالمين ،ويطهر بلاد الرافدين (العراق) من كل من يريد بها السوء، ثم يمتد خياله الشعري ليصل مدن فلسطين المحتلة (الجليل، يافا، الناصرة) فيطهرها من دنس الصهاينة ، وتغدو حقولها وبساتينها خالية من الاحقاد البشرية التي انتهكت خضرتها .

ويقول في نص آخر: (٣٩)

"نهاوندُ" ابتدتْ مطراً
يُظاحك رملَ أيامي
ويوقظُ في براري غربتي عُشبا
ويسكنُ شرفتي قمراً

يشعر الشاعر بحالة من الياس، يتذمر من المكان الذي يسكنه، يشعر بغربته، وفي نفسه امل العودة الى وطنه، فالألفاظ والتراكيب منحت النص بُعداً جمالياً وهي لم تقتصرْ على الشكل فقط، بل كان للجانب الدلالي اثراً كبيراً ،الشاعر اراد مخاطبة الواقع المرير الذي يمر به البلد جزاء تغربه وغربة ابناءه من خلال استدعاء المكان الخاص بهم.

نجده يقول في (بيروت) (٤٠)

سيكتبُ التاريخُ
ان جنَّةَ ارضية
مياهها محبة
وطينها ياقوتْ
تفرّدتْ بين حسان جيلها
فمرةً يدعونها "بيروت"

ومرةً
سيِّدةُ الجمال والدهشةِ
"عشتروتْ"

نلاحظ ان الشاعر قد وصف مدينة (بيروت) مستعملا الخطاب بالضمير الغائب ، اذ استعان بتقنية الاسترجاع الزمني ، مرددا ما قيل عنها ، اذ كانوا يدعونها بسيدة الجمال والدهشة ، بعد ان وصف شكلها التي انفردت به من بين البلدان فهي جنة ارضية ومياهها محبة وطينها ياقوت ، ثم يذكر اسمها بشكل مباشر (بيروت)، من هذا نستدل ان بيروت مكانا جغرافيا اليفا عند الشاعر ، وشعر معها بالأمان والاطمئنان بما احتوته من خضرة وبساتين ورياض وجبال مخضرة ،فزرعت تلك الطبيعة الجميلة في نفسه الحنين الى مرابعها والشوق الى الذهاب اليها ،وتمني الخير لاهلها بان ينعموا بالسعادة والراحة والامان .

الخاتمة :

١-نلاحظ في النصوص الشعرية ان الشاعر وظف المكان العام في شعره بصورة كبيرة وملحة ، وهذا يدل على مدى تعلق الشاعر ببلده ووطنه (العراق) ، والاماكن الدولية التي كانت لها نصيب وافر من شعره.

٢-حظي شعره بالمناظر الطبيعية الجميلة التي تزرع البسمة والتفاؤل لدى القارئ .

٣-والاماكن المقدسة التي حظيت بقسم كبير من شعره دليل على روح الشاعر الطاهرة وحبه وولعه بهذه الاماكن .

٤- وظف الشاعر المكان كبؤرة مركزية لحركة مشاعره، و بأسلوبٍ مميز لإيصال الصورة للمتلقي

هوامش البحث ومصادره

١- ينظر: جماليات المكان في الشعر العباسي ،د. حمادة تركي زعيتر، كلية التربية ،جامعة تكريت ، مؤسسة دار الصادق الثقافية، ط١، ٢٠١٣م:٥٨.

٢- ينظر :الرواية والمكان: ١/ ١٠ .

٣- جماليات المكان ، حمادة تركي : ٥٧

٤- المكان في الفن ، محمد ابو زريق ،عمان، ط١، ٢٠٠٣م : ١٣٥.

٥- الرعد:٣.

٦- البقرة :٢٩.

٧- زنابق برية (رباعيات)، يحيى السماوي،،ط١ ، دار الينابيع،:١٤٥.

٨- المصدر نفسه: ٦٢.

٩- المصدر نفسه :٨٦.

١٠- تيممي برمادي :٦٧.

١١- البكاء على كتف الوطن ، يحيى السماوي ، ط١، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر ، ٢٠٠٨م : ١٢٠

١٢- اطفئيني بنارك، يحيى السماوي ،ط١ ،٢٠١٣م:٩٠

١٣- دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر، غادة عقاق –(اطروحة دكتوراه)الزمان والمكان في نهج البلاغة : ٢٨

١٤- تعالي لا بحث فيك عني: ١١٥-١١٦.

١٥- نهر بثلاث ضفاف، يحيى السماوي، اصدار مؤسسة المثقف العربي ، سيدني – استراليا، ط١ ،٢٠١٩م :١٣.

١٦- الهة السماء والمطر والحب في الاساطير السومرية: المصدر نفسه.

١٧- المصدر نفسه : ١٦.

١٨- ينظر: جماليات المكان في الشعر العباسي :٦٧.

١٩- نهر بثلاث ضفاف:٥٠.

٢٠- زنابق برية :١٠.

٢١- جماليات المكان في الشعر العباسي : ٥٨

٢٢- نهر بثلاث ضفاف : ٥٠

٢٣- أطفئيني بنارك ، يحيى السماوي ،ط١، دمشق ،٢٠١٣:٩١.

٢٤- نهر بثلاث ضاف :٢١.

٢٥- أطفئيني بنارك : ١١٦-١١٧.

٢٦- المصدر نفسه :٩١.

٢٧- نقوش على جذع نخلة : ٦٩.

٢٨- أطفئيني بنارك : ٤٤-٤٦.

٢٩- لماذا تأخرت دهرا : ٥٦

٣٠- المصدر نفسه : ٥٧

٣١- نقوش على جذع نخلة:٤٨-٤٩.

٣٢- تعالي لأبحث فيك عني :٩٨.

٣٣- البكاء على كتف الوطن:١٢٩.

٣٤- المصدر نفسه :٥٦.

٣٥- قليلكِ لا كثيرهنَ :٣٠.

٣٦- النظرية البنائية في النقد الادبي، د. صلاح فضل ،دار الشؤون الثقافية العامة ،بغداد،ط٣ :٢٥٠.

٣٧-نهر بثلاث ضفاف : ١٠٢.

٣٨- قليلك لا كثيرهن :٥٨.

٣٩- البكاء على كتف الوطن : ١٠٣ .

٤٠- المصدر نفسه : ٩٩ .